دالت دولة الشعر

للأديب هلال أحمد شتا

تصاحب هذه الحقيقة المرة رأسي منذ زمن بعيد ، ويقوم بيني وبين نفسي من أجلها جدال عنيف ؛ فلا أنا قادر على أن أفلتها لتجد لها مكاناً عند غيري ، ولا على أن أدعها تقض مضجعي وتلهب رأسي . . وليس شك في أنني تركتها تؤرقني طوال هذا الزمن ، فلم أفض بها إلى مثل هذه السطور ، خوفاً على نفسي وإشفاقاً وفرقاً . . فكلما تمثل في خيالي وصح في ذهني أن مئات من الناس يقفون على هذه الصناعة — صناعة الشعر — ويخلصون لها ، ويؤمنون بها ، ترددت في الكتابة ، ثم أحجمت . .

على أنني — وقد آمنت بهذه الحقيقة منذ كان شوقي قائماً بيننا يملأ الدنيا صدحا وتغريداً ، ومنذ كان غيره من فحول الشعر لا يزالون في الميدان صوالين جوالين — أحسبني اليوم قادرا على أن أبوح بما آمنت به ، بعد أن خلت عرائن الأسود إلا من الأشبال ، وبعد أن تقدم بنا العصر بضع خطوات كفيلة بأن تقضي على دولة الشعر أي قضاء . .

ذلك أن الشعر لم يصبح مما يسيغه ذوق عصرنا هذا ، ولا أصبح قادراً على أن ينهض على قدميه أو يواصل سيره في سبيل البقاء . وسأحاول على هذه الصفحات أن أبسط ذلك بعض البسط ، مترفقاً في محاولتي عازفاً عن المبالغة . وفي يقيني أنني سأخرج من هذه الكلمة الهادئة ، وإلى جانبي غير قليل من القراء الكرام . . فأما الشعراء والمؤمنون بهم ، فلست أخشى اليوم نقمتهم أو أشفق مما عساهم يفعلون .

* * *

ولقد يدرك القارىء أني لا أحاول أن أنتقص من قدر الشعر القديم أو أكفر برسالته ، فأنا عن مثل ذلك عزوف عفيف . . ولكن الذي أقول : هو أن رسالة الجمال والفن في ذلك الشعر القديم ليست خالدة ولا باقية على الأيام ؛ وبحسب الشعراء الأقدمين أنهم قاموا على تأدية هذه الرسالة في عصورهم وأزمانهم ، وأنهم صوروا بشعرهم صوراً بهرت نفوس ذويهم وأقوامهم ومعاصريهم ؛ بل إن تقدير الزمن قد امتد بآثارهم عصوراً أخرى غير تلك العصور . . ولكن تاجهم هذا لم يعد راويا لظمأنا نحن إلى الجمال ، مصوراً في صور تهز نفوس أبناء هذا العصر الحديث الناظرين إلى الحياة بغير منظار السادة الأولين . . وكل مابقي لنا من آثار ذلك السلف الكريم لا يعدو أن يكون ثروة لفظية ولغوية تقوم منا اللسان وتبسط أمامنا سبل الحديث المستقيم ، ولا يعدو أن يكون موضوعا لدراسات أدبية ، أو اجتماعية ، أو نفسية ، يفيد منها التاريخ ، ويفيد منها رواد الأدب والباحثون في حياة الجماعات الأولى . . كيف كانت ، وكيف سارت بها السنون نحو الرقي والكمال ، أو نحو التدهور والقعود

وهذه اللغة العربية التي جمعت على هيكلها شعوبا وقبائل في شبه الجزيرة ، كانت في حاجة الى الشعر وهي ما زالت طفلة تحبو ، شأنها في ذلك شأن كل اللغات اليافعة القريبة المولد ؛ فالشعر يكاد أن يكون هو المظهر الأوحد للأدب أو الفن في البيئات الأمية التي تنقطع فيها أسباب الكتابة والتدوين . وكل جماعة من الجماعات الأمية محتاجة أشد الحاجة الى وسيلة تسجل بها خواطرها المشتركة ، وتعبر عن مشاعرها ، وتتحدث بمفاخرها ؛ ولا بد من أن تكون هذه الوسيلة قادرة على اذاعة رسالتها بين الأفراد ، وحثهم على أن يتلقنوها ؛ ولا يستطيع كل ذلك الا الشعر ، فان اتزانه ، وتقفيته ، وموسيقاه ، تسوقه الى ذاكرة سامعيه من أيسر طريق وأقصد سبيل

ولا شك في أن علم الناس بالقراءة والكتابة — بعد ذلك — يحمل عن كاهل الشعر بعض هذه الاعباء ، ويحد كذلك من سلطانه شيئا ، ويسلبه بعض نفوذه العريض ، ولكنه يوجهه توجيها ساميا نحو الفن الرفيع ، وتلمس ألوان الجمال ، التي تختفي في ثنايا الوجود ، وتتوارى وراء أغشية الجمود

على أن الشعر لا يمكن أن يكون متفردا بهذا التوجيه الجديد الذي دفعته اليه معرفة الناس القراءة والكتابة ، لأن هذه المعرفة خلقت النثر الواسع الأجواء ، الذي يلعب بسائر فنون القول ، والذي أصبح بعد قليل أقدر عليها من الشعر وأقوى ساعدا . ولست بحاجة الى أن أثبت قدرة النثر على التعبير ، وتفوقه على الشعر في هذا السبيل . فذلك أمر بديهي ؛

ولن يجد الكاتب الذى يسجل خواطره ، أو يترجم أحاسيسه ، أو يعبر عما يختلج فى ذهنه من المعانى ـ أفسح من النثر مجالا ، ولا أوسع ميدانا لقلمه الجوال . ولن يتقيد فيما يكتب بوزن يتحتم عليه أن يرعاه ، ولا بقافية تأخذ بخناق قلمه أخذا

وأخشى أن يتحدث المفتونون بالشعر ـ فى هذا المجال ـ عن روحانية الشعر ، وسمو أجوائه ، وروعة أخيلته ، وفتنة موسيقاه ، وما الى ذلك مما يجيدون فيه الحديث ؛ وألا يدركوا أن روحانية المعنى ، وسمو الجو ، وروعة الخيال ، ليست قاصرة على الشعر ولا هى وقف عليه ؛ فما أجمل ما يكتب الناثرون أصحاب النفوس الشاعرة ، وما أروع ما ينتجون . . وفى جنبات سطورهم المنثورة تسفر الفتنة الخالدة التى تلعب بالمشاعر لعباً . . ولن يسىء إلى هذه الفتنة الرائعة أنها محاطة بجلال الصمت ، وأنها عارية عن موسيقى الشعر التى لم تعد إليها بحاجة ، فلقد كانت هذه الموسيقى تهز النفوس يوم كانت النفوس لا تزال على فطرتها طفلة رخوة ؛ ولكنها اليوم لم تهز نفوساً تنصت كل يوم لموسيقى الأوتار .

لقد دار الزمن دورة قصيرة المدى ، فاذا الشعر يصبح قاصراً عن أداء رسالة الفن والجمال ، التى وجهه إليها علم الناس بالقراءة والكتابة ؛ وليس عمر الشعر العربى الصحيح الذى أدى رسالته هذه فأحسن الأداء سوى لمحة خاطفة من عمر الزمان ، فلقد وقف بعد ذلك حينا فأطال الوقوف ، ولم يخط إلى الأمام خطوة واحدة ، بل إنه سار إلى الوراء خطوات وخطوات ، ليصبح ترديداً معوجاً لما قال الأقدمون

ولقد ذهب الباحثون يتلمسون أسباب وقفته ، ويخلقون المعاذير ، وراحوا يوغلون فى مسالك من القول متشعبة لا تنتهى إلى مصير ؛ يضرب الأكثرون منهم على وتر واحد هو وتر الخطوب السياسية التى هدت كاهل العرب والعربية والتى طوحت بآثارهم إلى مهاوى الفناء . . ومهما يكن فى ذلك من الصدق أو سلامة المنطق ، فانه لا ينهض سبباً لوقفة الشعر العربى فى أيامنا هذه التى شملتنا فيها موجة من الرقى فى مناحى التفكير جميعاً ، إلا ناحية الشعر . . والتى بلغ نثرنا فيها مكاناً فوق مكان الأولين

وفى يقينى أن وقفة الشعر هذه ، وتخاذله ، وسيره نحو الفناء ، لا سبب له سوى أنه قد أدركته الكهولة ، فلم يبق ثمة أمل فى شفائه من أهوال السنين التى تستشرى اليوم فى عظامه وخلاياه ، والتى سوف تحيله أثراً وذكرى . فليست عقولنا كهلة ولا مريضة ، وإنما الشعر هو المريض المهيض ؛ وما أجدبت منا القرائح ولا زايلتنا خصوبة الخيال ، وإنما الشعر هو الذى يضيق عما خلقت قرائحنا المصقولة بمعول التفكير الحديث ، من آفاق واسعة ممدودة الأطراف . وهاهم الأوربيون ـ وهم من تتحدث معجزات العصر بعبقريتهم ونبوغهم فى شتى جوانب التفكير ، وسائر ضروب الفن الجميل ـ قد أدركوا منذ زمن بعيد قصور الشعر وضيق ذات نفسه ، وتوجه شعراؤهم إلى ألوان من القصة والمسرحية وغيرهما . وها هو شعرهم آخذ سمته نحو الهزيمة القاتلة والفناء الذريع .

ويلوح أن شعراءنا المحدثين قد آمنوا بهزيمة الشعر فيما بينهم وبين أنفسهم ـ ولو من حيث لا يشعرون ـ ويلوح كذلك أن جهود شوقى الأخيرة فى سبيل المسرحية الشعرية كانت مظهرا من مظاهر هذا الايمان . وإننا لنلمس أن النثر فى تناج العقاد عشرة أضعاف الشعر أو يزيد ، وأن القصة وحدها والمقالة القصيرة هما قبلة جهود المازنى جميعا ـ وقد كان شاعرا ـ

وأحمد الله على أن شعراءنا الشبان ، أمثال ناجى ، والخفيف ، وفتحى موسى ، والطرابلسى ، وغيرهم ، قد وجهوا عنايتهم إلى القصة وما اليها من فنون الكتابة والبحث ، قبل أن يبعثر الشعر أيامهم الغر ، وهى أعز علينا من أن تلقى فى الهراء . .

ولا حاجة بعد هذا إلى القول بأن دولة الشعر قد دالت ، فذلك ما انتهيت اليه ، وما أظن القراء الامنتهين إليه أيضا . . وإذا كان الشعر قد استطاع أن يحافظ على بقائه طوال هذه السنين ، وأن يعارك الزمن فتيا وكهلا ، فلن يستطيع البقاء فى عصر الطباعة والصحافة ، ولن يستطيع البقاء فى عصر القصة — وقد سلبته ما تبقى له من بعض الفتنة والجمال . ولكننى لن أنسى أن أقول إن نوعا واحدا من الشعر لا يزال قادرا على البقاء ، هو شعر الغناء ، ليكمل جانبا من فن الموسيقى ، كما يكمل أدب المسرحية فن التمثيل .

ويستطيع الشعراء بعد ذلك أن ينظموا لأنفسهم ما يشاءون ، وأن يقرأوا لأنفسهم كذلك ما يشاءون . . فأما المجد الادبى ، وأما رسالة الجمال والفن ، فليبحثوا عنهما من طريق غير هذه الطريق . .

هلال أحمد شتا
بمجلس الشيوخ